



ينتابني حزن عميق نحو الزملاء السابقين الذين يتحملون مسؤولية السياسات الأمريكية إزاء المأساة السورية الراهنة. وما أسمعه منهم هو تعبير صريح عن استحالة تحقيق الاستراتيجيات والغايات الأمريكية في هذا الملف الشائك للغاية. وإنني على يقين من أنهم يدركون هذا الأمر بالفعل، غير أن المسرح السياسي العالمي يتطلب منهم الإفصاح والحديث. طالما فضلت أن يبلغ الناس بما لدى من أخبار سيئة وكانت أرغم دوماً في الاستماع إلى الحقيقة الصارخة الموجعة، ويقولون في المثل العربي الدارج: «الصراحة راحة». ولا أعتقد الآن بوجود «الصراحة» أو ما توحى به من «راحة» ضمن السياسات الأمريكية في سوريا.

على سبيل المثال، صرخ مسؤولون أمريكيون كبار مؤخراً – مثل وزير الخارجية مايكل بومبيو، ووزير الدفاع جيمس ماتيس، والمبعوث الأمريكي الخاص لسوريا السفير جيمس جيفري – بأن عملية الأمم المتحدة الجارية بشأن جلب الأطراف السورية المعنية للتفاوض بشأن التعديلات الدستورية هناك ومن ثم إجراء الانتخابات العامة في البلاد، من شأنها أن تسفر عن «حل» الأزمة السورية. لكن، ما هي المشكلة القائمة في الدستور السوري على وجه التحديد؟ تنص المادة رقم 33 من الدستور الوطني السوري على أن الدولة تضمن الحريات، والكرامة، والأمن لكل المواطنين. وتنص المادة رقم 42 من الدستور على أنه لكل مواطن الحق في التعبير عن رأيه بحرية. في حين تنص المادة رقم 44 من الدستور على أن المواطنين الحق في التجمع والتناظر بالوسائل السلمية. وتحظر المادة رقم 53 من نفس الدستور استخدام كل وسائل وأساليب التعذيب. أما المادة الثامنة، فتنص على أن النظام السياسي في البلاد يستند إلى الانتخابات الديمقراطية. وبناء عليه، نعاود طرح نفس السؤال الفائق: ما هي المشكلة القائمة في الدستور السوري على وجه التحديد؟

قرر المسؤولون الأمريكيون، الذين يعتقدون بسهولة سحب وتطبيق تجربتهم الذاتية التاريخية على بقية بلدان العالم رغم الاختلافات الثقافية والتاريخية المتعددة، أن يمنح رئيس الوزراء السوري المزيد من السلطات والصلاحيات، في حين

تُقْلِصُ سُلْطَاتِ رَئِيسِ الْجَمْهُورِيَّةِ وَصَلَاحِيَّاتِهِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَلَا يَسْتَنِدُ النَّظَامُ السِّيَاسِيُّ السُّورِيُّ إِلَى مَرْكُزِيَّةِ الْحُكْمِ وَالْقِيَادَةِ. وَيُمْكِنُهُمْ مَارْسَةُ الْمُضْغُوطَ لِفَرْضِ مَوَادٍ جَدِيدَةٍ عَلَى الدُّسْتُورِ السُّورِيِّ تَبْثِقُ مِنْ رَؤُبِتِهِمُ الْخَاصَّةُ لِلأَوْضَاعِ هُنَاكَ.

يَنْبَغِي عَلَى بَعْضِ السَّاسَةِ الْأَمِيرَكِيِّينَ الَّذِينَ يَدِيرُونَ دَفَّةَ السِّيَاسَةِ الْأَمِيرَكِيَّةِ إِذَاءَ سُورِيَا أَنْ يَتَحَلَّوْ بِقَدْرِ مَمْكُورِ التَّواصُعِ: لَقَدْ مَارَسُوا الْمُضْغُوطَ الشَّدِيدَ لِأَجْلِ أَنْ يَتَوَلَّ نُورِيُّ الْمَالِكِيِّ رَئِيسَةَ وَزَرَاءَ الْعَرَاقِ فِي عَامِ 2010 وَ2011. وَأَثَبَتَ التَّارِيخُ أَنَّ هَذَا كَانَ مِنَ الْأَخْطَاءِ السِّيَاسِيَّةِ الْفَادِحَةِ الَّتِي أَفْضَتَ إِلَى بُرُوزِ خَطَرِ «دَاعِشَ» فِي كُلِّ الْعَرَاقِ وَسُورِيَا لاحِقًا. وَيَنْبَغِي عَلَيْهِمْ إِدْرَاكُ حَقِيقَةَ بِسِيَاطَةِ مَفَادِهَا أَنَّ «حَزْبَ الْبَعْثِ السُّورِيِّ» لَا يَزَالُ عَلَى رَأْسِ الْحُكْمِ فِي الْبَلَادِ، وَهُوَ يَرْفَضُ «لَا مَرْكُزِيَّةً» السُّلْطَةِ وَالْقِيَادَةِ رَفْحًا بَاتَّاً. وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لِيَسْتَ لَدِي سُورِيَا خَبَرَاتٍ كَافِيَّةً فِي لَا مَرْكُزِيَّةِ الْحُكْمِ بِالْأَسَاسِ.

وَتَظَهَّرُ الْمُشَاكِلُ الَّتِي عَانَى مِنْهَا الْعَرَاقُ فِي مَحَافَظَاتٍ مُثُلَّ الْبَصَرَةِ مَدِي صَعُوبَةِ تَطْبِيقِ أَسَالِيبِ الْحُكْمِ الْلَّامِرْكِيَّةِ. وَالْأَهْمَمُ مَا سَبَقُ، وَبِصَرْفِ النَّظَرِ تَمَامًا عَمَّا يَتَعَهَّدُ بِهِ الدُّسْتُورُ الْوُطَنِيُّ السُّورِيُّ، فَإِنَّ أَجْهَزَةَ الْأَمْنِ السُّورِيَّةِ لَا تَحْرُمُ الْقَوَانِينِ الْمُعْمَلَوْ بِهَا فِي الْبَلَادِ. فَهُلْ نَسِيَ الْمَسْؤُلُونَ الْأَمِيرَكِيُّونَ آلَافَ الصُّورِ لِلْمَوَاطِنِينَ السُّورِيِّينَ الَّذِينَ قُتِلُوا تَحْتَ وَطَأَةِ التَّعْذِيبِ مِنْ حُكْمَةِ السُّورِيَّةِ الْحَالِيَّةِ وَأَجْهَزَتُهَا الْأَمْنِيَّةُ عَلَى الرَّغْمِ مِنِ الْمَادَةِ رَقْمِ 53 فِي الدُّسْتُورِ السُّورِيِّ آنَفِ الذِّكْرِ؛ إِنَّ الْدَّرْسَ الْمُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ بِسِيَاطِ الْلِّغَاءِ: لَا تَوْجُدُ سِيَادَةٌ لِلْقَانُونِ دَاخِلَ سُورِيَا وَالْدُسْتُورُ مُنْبَتُ الْصَّلَةِ تَمَامًا بِوَاقِعِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَمَرَّ بِهَا الْبَلَادِ، إِنَّهُ لَيْسَ إِلَّا حِبْرًا عَلَى وَرَقِ.

بَعْضُ مِنْ زَمَلَائِيِّ الْأَمِيرَكِيِّينَ السَّابِقِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الْعَرَاقِ قَبْلَ 15 عَامًا فِي أَعْقَابِ الْغُزوِ الْأَمِيرَكِيِّ فِي عَهْدِ جُورْجِ بَلْبِلِيُّو بُوشِ الَّذِي أَطَاحَ بِنَسْطَامِ حُكْمِ صَدَامِ حُسَينِ هُنَاكَ. وَيَتَذَكَّرُونَ أَنَّ الْعَرَائِقِيِّينَ صَاغُوا دَسْتُورًا جَدِيدًا لِلْبَلَادِ فِي عَامِ 2005، ثُمَّ أَجْرَوُوا اِنتِخَابَاتٍ عَامَةً تَفَقَّرَ إِلَى الْمَثَالِيَّةِ لِكُلِّهَا كَانَتْ دِيمُقْرَاطِيَّةً إِلَى حَدِّ مَا. وَيَقُولُ الْمَسْؤُلُونَ الْأَمِيرَكِيُّونَ إِنَّ الْإِنْتِخَابَاتِ السُّورِيَّةِ الْمُقْبَلَةِ يُمْكِنُ أَنْ تَتَمَّ تَحْتَ إِشْرَافِ مَنظَمَةِ الْأَمْمِ الْمُتَحَدَّةِ، تَمَامًا عَلَى غَرَارِ الْإِنْتِخَابَاتِ الْعَرَاقِيَّةِ السَّابِقَةِ فِي عَامِ 2005. بِيَدِ أَنَّ سُورِيَا فِي عَامِ 2019 وَ2020 لَنْ تَكُونْ أَبْدًا كَمَثُلِ الْعَرَاقِ فِي عَامِ 2005، نَظَرًا لِأَنَّ الْجَيْشَ الْأَمِيرَكِيَّ قَضَى عَلَى الْأَجْهَزَةِ الْأَمْنِيَّةِ الْمَوَالِيَّةِ لِنَسْطَامِ صَدَامِ حُسَينِ قَبْلِ إِجْرَاءِ الْإِنْتِخَابَاتِ، لَكِنَّ الْأَجْهَزَةِ الْأَمْنِيَّةِ التَّابِعَةِ لِحُكْمَةِ بَشَارِ الْأَسَدِ (وَأَعْنِي الْإِسْتِخْبَارَاتِ) لَا تَزَالُ حَاضِرَةً وَفَعَالَةً وَنَشِطَةً لِلْغَايَةِ فِي الْوَاقِعِ السُّورِيِّ الْرَّاهِنِ. وَلَيْسَ مِنْ قَبْلِ الْمَصَادِفَةِ أَنْ يَفْوَزَ بَشَارُ الْأَسَدُ بِنَسْبَةِ 97 فِي الْمَائَةِ مِنِ إِجمَالِيِّ الْأَصْوَاتِ فِي اِنْتِخَابَاتِ عَامِ 2000، ثُمَّ بِنَسْبَةِ 98 فِي الْمَائَةِ فِي اِنْتِخَابَاتِ عَامِ 2007، وَمَرَّةً أُخْرَى بِنَسْبَةِ 89 فِي الْمَائَةِ فِي اِنْتِخَابَاتِ عَامِ 2014. فَهُلْ يَعْتَقِدُ الْمَسْؤُلُونَ الْأَمِيرَكِيُّونَ حَقًا أَنَّ الْإِسْتِخْبَارَاتِ السُّورِيَّةِ سَتَتَلَقَّيُ الْأَوْامِرَ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ مِنْ بَعْضِ مَوْظِفِيِّ الْأَمْمِ الْمُتَحَدَّةِ؟ وَعِنْدَمَا تَرْفَضُ الْأَجْهَزَةُ الْإِسْتِخْبَارَاتِ السُّورِيَّةُ تَنْفِيذَ أَوْامِرَ الْفَرَقِ التَّابِعَةِ لِلْأَمْمِ الْمُتَحَدَّةِ، هَلْ مِنْ أَحَدٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ مُوسَكُوَّ لَنْ تَسْتَخْدِمَ حَقَ النَّقْضِ (الْفِيَتوِ) مَجْدَدًا بَعْدَ أَنْ اسْتَخْدَمَتْهُ قَبْلَ ذَلِكِ 12 مَرَّةً لِحَمَامَةِ حُكْمَةِ بَشَارِ الْأَسَدِ فِي الْمَنْظَمَةِ الدُّولِيَّةِ؟

فَوْجَئْتُ كَثِيرًا بِتَصْرِيَحَاتِ السَّفِيرِ جِيمِسِ جِيفِرِيِّ. افْتَرَحَ أَنَّهُ عَلَى غَرَارِ اِنْسَاحِ الْجَيْشِ الْأَمِيرَكِيِّ مِنْ فِيَتَنَامَ، يُمْكِنُ لِإِرَانَ سَحْبُ قَوَاتِهَا الْمُنْتَشِرَةِ فِي سُورِيَا. غَيْرُ أَنَّ الْجَيْشَ الْأَمِيرَكِيِّ أَخْفَقَ فِي فِيَتَنَامَ، وَلَنْ يَقْاتِلْ حَلْفَاؤُنَا الْفِيَتَنَامِيُّونَ الْجُنُوبِيُّونَ إِلَى جَانِبِ أَحَدِ بَعْدِ الْآنِ. وَيَنْبَغِي عَلَى واشِنْطَنَ إِدْرَاكُ أَنَّ قَوَاتِ بَشَارِ الْأَسَدِ، الْمُدَعَوَّمَةُ مِنَ الْحَلَفَاءِ فِي رُوسِيَا وَإِرَانَ، سَتَوَاصِلُ الْقَتَالَ لِإِحْرَازِ تَقْدِيمِ فِي مِيَادِينِ الْقَتَالِ. إِنَّهَا حَقِيقَةٌ وَاضْحَى لِلْجَمِيعِ.

مِنَ الصَّعْبِ أَنْ نَفْهُمُ السَّبَبَ الْحَقِيقِيَّ وَرَاءَ اِسْتِمَارِ إِصْدَارِ التَّصْرِيَحَاتِ الْغَرِيبَةِ بِشَأنِ سُورِيَا مِنْ واشِنْطَنَ. وَلَدِيِّ بِشَأنِ ذَلِكِ تَفْسِيرَانِ اِثْنَانِ مُحْتَلَانِ؛ الْأَوَّلُ، أَنَّ الْأَمِيرَكِيُّونَ كَرَرُوا نَفْسَ الْفَكْرَةِ السُّخِيفَةِ بِشَأنِ الدَّسَاسِيرِ وَالْإِنْتِخَابَاتِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ لِدَرْجَةِ أَنَّهُمْ يَدُلُّوْ فِي تَصْدِيقِ أَنْفُسِهِمْ وَالْدُّعَائِيَّةِ الْخَاصَّةِ الصَّادِرَةِ عَنْهُمْ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ يَعْنِي حَالَ عَمَلِيِّ فِي الْعَرَاقِ بَيْنَ عَامِي

2003 و2010. ويتناهى المسؤولون الأميركيون أن هناك فارقاً كبيراً ومعتبراً بين الأمل الموهوم والتحليل العقلاني. والاحتمال الآخر يقول إن المسؤولين الأميركيين يدركون أن الدستور والانتخابات ستمنح الجانب الأميركي المبرر المطلوب لمقاطعة سوريا مع المحافظة على قدر «ما» من حفظ ماء الوجه. وربما يكون دستور «الحبر على ورق» مفيداً بدرجة كافية لواشنطن التي تعلن أنها لن تخوض حرباً ضد قوات إيران في سوريا. وهذا من قبيل التحليل الصائب وليس الوهم المأمول.

المصادر:

الشرق الأوسط